ولمّا جاء عيسى – عليه السّلام – بالآيات البيّنات والمعجزات الباهرات قال لقومه بني إسرائيل قد جئتكم بالنّبوّة ولأبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه من أحكام التّوراة الّتي أنزلها الله تعالى على موسى – عليه السّلام – كبير أنبياء بني إسرائيل. فاتّقوا الله تعالى، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه فإنّي أبلّغ عن الله تعالى. إنّ الله تعالى هو ربّي وربّكم فاعبدوه وحده لا شريك له. هذا صراط مستقيم وطريق قويم. ويلحظ أنّ هذا القول: (هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) يجيء في هذا القِسْم مرّتين اثنتين. مرّةً على لسان محمّد عليه الصّلاة والسّلام وأخرى على لسان عيسى عليه السّلام، تنبيهاً إلى أنّ رسالة المرسلين والنّبيّين واحدة، وهي الإسلام لله تعالى ربّ العالمين.

فاختلفت الجماعات من أتباع عيسى – عليه السّلام – فمنهم من قال إنّه عبد الله تعالى ورسوله. وهذه هي الفئة النّاجية بإذن الله تعالى. ومنهم من ظلم نفسه بالشّرك وظلم عيسى – عليه السّلام – فزعم أنّه هو الله تعالى أو أنّه ابن الله. تعالى الله عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيرا.

هل ينتظر المشركون في كلّ زمانٍ ومكانٍ إلاّ السّاعة أن تأتيهم بغتةً وهم لا يشعرون بقيامها، ووقتها لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل قيام السّاعة أو كسبت في إيمانها خيراً. إنّ على الكافرين عموماً أن يبادروا إلى الإيمان قبل فوات الأوان.

(٧)

"أصدقاء الدّنيا على الطّاعات أصدقاء الآخرة وثوابهم الجنّة، وأصدقاء الدّنيا على المعاصي أعداء الآخرة وعقابهم النّار"

الآيات (٨٩.٦٧)

يُعْنى القسم الأخير من السّورة الكريمة بقضيّة التّوحيد عنايةً بالغة، بحيث إنّه يصحّ أن يقال : إنّ قضيّة التوحيد هي المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة والهدف الّذي ترمي إلى تحقيقه. ويدور حديث القسم عن أصدقاء الدّنيا على التّوحيد والطّاعات فهم أصدقاء الآخرة، وعن أصدقاء الدّنيا على الشّرك والمعاصي فهم أعداء الآخرة. فليكن الجميع من هذه الحقيقة على وعي وحَذَر.

يقرّر السّياق أنّ أصدقاء الدّنيا على الشّرك والمعاصي، (بعضهم لبعض عدو) وأنّ أصدقاء الدّنيا على التّقوى والطّاعات أصدقاء الآخرة.

إنّ الحقّ جلّ وعلا ينادي المتّقين يوم القيامة: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم بسبب أعمالكم الصّالحة، ولا أنتم تحزنون على ما تركتكم خلفكم في الدّنيا من أهلٍ وولدٍ ومالٍ وجاه. إنّ الآخرة خير لكم من الأولى. إنّ هذه المنزلة الرّفيعة للذّين آمنوا بآي الذّكر الحكيم وكانوا مذعنين لله تعالى فخشعت قلوبهم وخضعت جوارحهم. يقال لهؤلاء المتّقين: ادخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم يملؤكم السّرور وتغمركم البهجة. ويطاف عليهم بقصاعٍ عراضٍ من ذهبٍ للطّعام، وبأكوابٍ لا آذان لها ولا خراطيم من ذهبٍ ليشرب الشّاربون من حيث شاؤوا. وفي الجنّة كلّ ما تشهيه الأنفس وتلذّه الأعين وأنتم

فيها أيّها المؤمنون خالدون. وتلك هي الجنّة الّتي أورثكم الله تعالى إيّاها بسبب ما كنتم تعملون في الدّنيا من صالح الأعمال. لكم فيها فاكهة كثيرة كمّاً ونوعاً منها تأكلون وتتلذّذون.

وفي مقابل خلود المتّقين في جنات النّعيم خلود المجرمين في نار الجحيم. إنّ العذاب لا يخفّف عنهم وهم فيه آيسون مستسلمون. وما ظلمهم الله تعالى ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بالشّرك. ونادى المشركون خازن جهنّم وقالوا: يا مالك ليُمِتْنا ربّك كي نرتاح من الشّقاء الّذي نحن فيه قال: إنّكم في العذاب ماكثون، وفي جهنّم خالدون.

لقد جئناكم أيّها المشركون بالحقّ عن طريق رسولنا - صلّى الله عليه وسلّم - ولكنّ أكثركم للحقّ كارهون، وللباطل محبّون. أم دبّر المشركون كيداً ضدّ محمدٌ -صلّى الله عليه وسلّم - وضدّ دين الإسلام الّذي أرسلناه به فإنّا مفسدون كيدهم وناصرون رسولنا والّذين آمنوا معه، في الحياة الأولى وفي الحياة الآخرة.

أم يظنّ المشركون أنّا لا نسمع سرّهم وما يتناجَوْن به في الخفاء. خاب ظنّهم فإنّا نعلم سرّهم ونجواهم وإنّ رسلنا الموكلين بهم يكتبون كلّ ما يقولون ويفعلون.

قل يا محمّد إنّ كان للرّحمن ولد فأنا أوّل من يعبد هذا الولد ولكن الله تعالى واحد أحد فرد صمد. تنزيهاً لله تعالى ربّ السّموات والأرض ربّ العرش العظيم عمّا يصفون ويكذبون على الله تعالى من نسبة الصّاحبة والولد والشّريك له جلّ وعلا. فذرهم يا محمّد يخوضوا بقول الباطل، ويلعبوا بعمل الباطل، حتّى يلاقوا يوم القيامة الّذي يوعدون فيه بالعذاب المهين. والمعروف أنّ القتال إنّما أُذِن به في السّنة الثّانية من الهجرة.

والله تعالى هو إله من في السّماء، وإله من في الأرض، فلا معبود بحقٍّ سواه عزّ وجلّ، وهو الحكيم في خلقه وتدبيره وفي كلّ شيء، العليم الّذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء. وتعظّم وتمجّد الله تعالى وتكاثر خير الحّق جلّ وعلا الّذي له ملك السّموات والأرض، وملك ما بينهما وعنده وحده دون سواه علم السّاعة، وإليه تُرْجَع بعد الممات.

ولا يملك الّذين يدعو المشركون ويعبدون من دون الله تعالى الشّفاعة يوم القيامة ، لكن تكون الشّفاعة لمن شهد بالحقّ، وأعلن شهادة التّوحيد، وصدّق عمله قوله، وهو يعلم عين اليقين حقيقة ما يشهد به من إفرادٍ لله تعالى بالعبادة.

ولئن سألت كفّار مكّة من خلقهم وأوجدهم من العدم ليقوُلنّ الله تعالى. فكيف يُصْرف هؤلاء المقرّون بتوحيد الرّبوبيّة من الإقرار بتوحيد الألوهيّة. وليس بخافٍ أنّ إقرار المشركين بتوحيد الرّبوبيّة أومأت إليه من قبل الآية الكريمة التاسعة من السّورة الكريمة. وهكذا تترابط المعاني رغم تباعد الآيات الكريمات.

إنّ عند الله تعالى وحده علم السّاعة، وعنده علم قبل المصطفى – صلّى الله عليه وسلمّ – لربّه جلّ وعلا شاكياً قومه: يا ربي إنّ قومي هؤلاء لا يؤمنون فما العمل؟

العمل في هذه الفترة المكّيّة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلامية أن تعفو عنهم وتصفح وتقبل عليهم بصفحة وجهك وأن تقول لهم: سلام عليكم وأمن وطمأنينة من الله تعالى فسوف يعملون مستقبلاً أليم عذابه عزّ وجلّ حينما يَحُلُّ بهم خزي الدّنيا والآخرة. وقد جاء الإيماء إلى معنى الصّفح في الآية الكريمة الخامسة من السّورة الكريمة. وهذا نوع من الرّباط بين الآيات الكريمات وإن تباعدت.

التّفسير

(١)

"يصرّ كفّار مكّة على استهزائهم بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإنكارهم للبعث وشركهم رغم إقرارهم بتوحيد الرّبوبيّة"

الآيات(١-١٤)

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

وإنّه في أمّ الكتاب: أي اللّوح المحفوظ[1].

لدينا: عندنا[2].

لعلي: لذو علوّ ورفعة[3].

حكيم: قد أُحْكِمَتْ آياته ثمّ فُصِّلَتْ، فهو ذو حكمة[4].

تبدأ سورة الزّخرف المكّيّة الكريمة بالحرفين المقطّعين (حم) اللذين تبدأ بهما كلّ سور آل حم السّبع. وما قيل عن هذين الحرفين من قبل بشأن سور غافر وفصّلت والشّورى وعن كلّ الحروف المقطّعة، ابتداءً بسورة البقرة، يقال هنا. وجرياً على عادة كلّ السّور الّتي تبدأ بهذه الحروف المقطّعة في الحديث عن القرآن الكريم على الفور أو التّراخي تتحدّث سورة الزّخرف الكريمة عن القرآن الكريم على الفور.

إنّ الحقّ جلّ وعلا يقسم بهذا الكتاب العزيز، المبين عن معانيه، المفصح عن مراميه، الّذي أُحْكِمَ نظمه، وفُصّلت أحكامه ومسائله وسائر قضاياه ومعانيه.

إنّ الحقّ جلّ وعلا، قد جعل هذا الكتاب العزيز المنزّل على- محمّد صلّى الله عليه وسلّم - قرآناً عربيّاً بلسانٍ عربّيٍ مبين.

---

[1] تفسير ابن كثير ٢٥/٧، والجلالين ، والكشّاف ٨٩/٣.

[2] تفسير الطبري ٣٠/٢٠ ، وتفسير ابن كثير ٢٠٥/٧ ، والجلالين.

[3] تفسير الطبري ٣٠/٢٠.

[4] تفسير الطبري ٣٠/٢٠.

لعلّ أهل مكّة خصوصاً، والعرب عموماً، وهم مادّة الإسلام الأولى، يعقلون معاني هذا الكتاب العزيز الّذي نزل بلسانهم، ويدركون النّعمة العظمى الّتي خصّهم الله تعالى بها، فيهتدون إلى الطّريقة الّتي هي أقوم، ويدعون الآخرين إلى الاقتداء بهم والنّسج على منوالهم.

وإنّ هذا الكتاب العزيز الّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم هو في اللّوح المحفوظ لدى الحقّ جلّ وعلا في السّموات العُلَى لَعَلِيٌّ وذو مقامٍ رفيع، حكيم، تقنع حِكَمُه كلّ لبّ، ويطمئنّ بمعانيه كلّ قلب، وينشرح بحلاوة نظمه كلّ صدر، وتطرب بعذوبة جرسه كلّ أذن.

وهذه النّعوت الّتي ما نزال نردّدها حتّى يوم النّاس هذا، هي ذات النّعوت الّتي لَهِجت بها الألسنة حينما صافحت أي الكتاب العزيز الآذان أوّل مرّة، فاستقرّت في القلوب، وهي ذات النّعوت الّتي سوف تلهج بها الألسنة إلى يوم الدّين، وإلى أن يرث الأرضَ ومن عليها علاّمُ الغيوب.

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾

الذّكر: القرآن[1].

صفحاً: الصّفح: الجنب. وصفح الإنسان جنبه. وصَفْح الوجه بفتح الصّاد وصُفْحه بضمّ الصّاد عُرْضه، بضمّ العين[2] وعُرْض الشّيء بالضّمّ: ناحيته من أيّ وجه جئته[3] وصَفْح السّيف وصُفْحة: عُرْضه. وصفحت فلاناً. وأصفحته جميعاً، إذا ضربته بالسّيف

---

[1] تفسير الطبري ٣٠/٢٥ ، وتفسير ابن كثير ٢٠٦/٧، والجلالين.

[2] لسان العرب : "صفح".

[3] لسان العرب : "عرض".

مُصْفِحاً، أي بعُرْضه. وفي حديث سعد بن عُبادة رضي الله تعالى عنه: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسّيف غَيْر مُصْفِحٍ عنه[1] يقال: أصفحه بالسّيف إذا ضربه بُعْرضه دون حدّه. فهو مُصْفِح. والسّيف مُصْفَح. ويرويان معاً[2] والصّفحان والصّفحتان: الخدّان، وهما اللحيان[3] وصَفْح الشّيء عُرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السّيف وصفحة الحَجَر. والصّفح ترك التّثريب وهو أبلغ من العفو. وقد يعفو الإنسان ولا يصفح[4] فأمّا قولهم: صفح عنه، وذلك إعراضه عن ذنبه، فهو من الباب، لأنّه إذا أعرض عنه فكأنّه قد ولاّه صفحته وصُفْحه، أي عُرضه وجانبه، وهو مثَل[5] وفي حديث عائشة رضي الله عنها تصف أباها: "صَفوح عن الجاهلين" أي كثير الصّفح والعفو والتّجاوز عنهم. وأصله من الإعراض بصَفة الوجه، كأنّه أعرض بوجهه عن ذنبه. والصَّفوح من أبنية المبالغة[6] وصَفْح كلّ شيءٍ: وجهه وناحيته[7].

أن كنتم قوماً مسرفين: لأن كنتم[8] ولأجل أن كنتم[9] قوماً مشركين[10].

وجاء في تفسير ابن كثير[1] وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾ اختلف المفسّرون في معناها فقيل: معناها أتحسبون أن

---

[1] صحيح مسلم تحقيق محمدّ فؤاد عبد الباقي ١١٣٦/٢ حديث رقم ١٤٩٩.

[2] النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٤/٣ ، ولسان العرب : "صفح".

[3] لسان العرب : صفح".

[4] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "صفح" ٣٧٠/٢.

[5] معجم مقاييس اللّغة : صفح" ٢٩٣/٣.

[6] النّهاية في غريب الحديث والأثر ٣٤/٣.

[7] النّهاية ٣٤/٣.

[8] تفسير الطّبري ٣١/٢٥، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١٨/١١، والكشاف ٩٠/٣.

[9] الجلالين.

[10] الجلالين.

نصفح عنكم فلا نعذّبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به. قاله ابن عبّاس ومجاهد وأبو صالح والسّدّي واختاره ابن جرير.

وقال قتادة في قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ والله لو أنّ هذا القرآن رُفِعَ حين ردّته أوائل هذه الأمّة لهلكوا.

ولكنّ الله عاد بعائدته[2] ورحمته، وكرّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جدًّا، وخاصة أنّه يقول في معناه: إنّه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذّكر الحكيم. وهو القرآن. وإن كانوا مسرفين معرضين عنه. بل أمر به ليهتدي من قدّر هدايته وتقوم الحجّة على من كَتَب شقاوته.

ونحن بدورنا نرغب في أن ندلي بدلونا ضمن الدّلاء في سبيل تبيين معنى الآية الكريمة، وذلك في هيئة النّقاط الآتية:

١- سور آل حم من المكّيّ من القرآن الّذي نزل قبل الهجرة.

٢- لفظة الصّفح في الآية الكريمة تذكّرنا بالآية الكريمة الأخيرة من السّورة الكريمة في المعنى ذاته. قال تعالى: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ وهذا الأمر للمصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - بالصّفح عن المشركين كان قبل الأمر بالقتال. والمعروف أنّ الإذن بالقتال كان في السّنة الثّانية من الهجرة.

---

(1) الجلالين .

(2) أي بفضله.

٣- ترتبط عمليّة الضّرب في القتال بالسّيف. ويكون الضّرب في هذه الحال بحدّ السّيف. وحينما لا يكون المراد قتل الخصم أو إيذاؤه يكون الضَّرب بصَفْح السّيف، أي بالجانب غير الحادّ منه.

٤- يجيء في الآية الكريمة لفظ الذّكر، بمعنى القرآن الكريم، وليس لفظ السّيف. قال تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ كما يجيء حرف الجرّ عن : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ ﴾ بمعنى أهملكم[1].

فنصرف عنكم القرآن الكريم والذّكر الحكيم. وحرف الجرّ "عن" هنا يفيد عكس معنى حرف الجرّ اللّام في مثل القول: ضربت لك المثل وصرفت لك القول.

٥- هيّأ حرف العطف "عن" في القول ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ لمجيء اللّفظ: ﴿ صَفْحًا ﴾ الّذي يحمل سجلاً حافلاً من المعاني في مجال تطوّر الدّلالة، والتّحوّل من المحسوسات إلى المعنويّات. وإنّ تطوّر الدّلالة وتحوّلها من المحسوسات إلى المعنويّ متمشٍّ مع التّحوّل كذلك من المحسوس إلى المعنويّ في مثل القول: ضربه بصفح السّيف وضرب منه القول صفحاً.

إنّ الصّفح معنى الوجه من كلّ شيء في المحسوسات ومنها السّيف. وإنّ الصّفح أفاد في المعنويّات معنى العفو بل ما فوق العفو. وذلك بالإقبال بصفح الوجه وصفحته، دليل الرّضا، إذ قد يعفو الشّخص ولكن لا يصفح.

في ضوء ما سبق، يصحّ أن يكون معنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، أهملكم فنضرب عنكم يا كفّار قريش الذّكر الحكيم هواناً لكم فلا نأمركم ولا ننهاكم لأجل

---

[1] انظر الكشاف ٨٩/٣ ، الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١٨/١١.

أنّكم قوم مشركون. أفنهملكم فنصرف عنكم يا أهل مكّة القرآن الكريم تركاً لكم، واحتقاراً لشأنكم، وعقاباً لكم على شرككم وكفركم وصدّكم عن سبيل الله تعالى، فلا يترل الجديد من الوحي على محمّد - صلّى الله عليه وسلّم-، ويمحو الله تعالى من الصّدور القديم منه!

إن الله سبحانه وتعالى أكرم من أن يؤاخذ المحسنين بالمسيئين، الطّائعين بالعاصين، الموحّدين بالمشركين، المؤمنين بالكافرين. وبذلك تكون الآية الكريمة تهديداً للمسرفين.

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ومضى مثل الأوّلين: قال قتادة: عقوبة الأوّلين[1] وقال مجاهد: سنّتهم[2] وقال غيرهما: عبرهم، أي جعلناهم عبرةً لمن بعدهم من المكذّبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السّورة[3]: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[4] فمعنى السّلف أنّا جعلناهم متقدّمين يتّعظ بهم الغابرون.

ومعنى قوله: {ومثلاً} أي عِبْرَةً يعتبر بها المتأخّرون[5].

الآيات الكريمات في تسلية المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم- والتّسرية عنه وتثبيت فؤاده - عليه الصّلاة والسّلام -في هذه الفترة المكّيّة الّتي كانت السّطوة فيها للكافرين.

---

(1) تفسير الطّبري ٣٢/٢٥.

(2) تفسير الطّبري ٣٢/٢٥.

(3) الآية ٥٦.

(4) انظر تفسير ابن كثير ٢٠٦/٧.

(5) لسان العرب:"مثلى" والغابرون الماضون والسّابقون.

ما أكثر النّبيّين الّذين بعثناهم قبلك يا محمّد في الأمم السّابقة. إنّهم ما يأتيهم من نبي إلاّ كانوا به يستهزئون ومنه يسخرون كاستهزاء قومك بك وسخريتهم منك.

فأهلكنا يا محمدّ أشدّ من قومك بطشاً، وأكثر أموالاً وأولاداً وقوّة، وحقّت عليهم كلمة العذاب، وغدوا عبرةً لأولي الألباب، وسارت بذكرهم الرّكبان، وجرى ما حلّ بهم على كلّ لسان، ومضت في حقّهم سنّة الله تعالى في المكذّبين المستهزئين السّابقين. ولن تجد أيّها الإنسان لسنّة الله تعالى تبديلاً ولا تحويلا.

وواضح وجه الشّبه بين القول هنا: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ والقول في الآية الكريمة السّادسة والخمسين من السّورة الكريمة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

خلقهنّ العزيز العليم: خلقهنّ العزيز في سلطانه وانتقامه من أعدائه. العليم بهنّ وما فيهنّ من الأشياء لا يخفى عليه شيء[1].

مهداً: فراشاً كالمهد للصّبيّ[2] والمهد والمهاد المكان الممّهد الموطّأ. ومهّدت لك كذا هيّأته وسوّيته[3].

سبلا: أي طرقا[4] والمفرد سبيل، والسّبيل الطّريق الّذي فيه سُهولة[5].

بقَدَر: بمقدار حاجتكم إليه فلم يجعله كالطّوفان فيكون عذاباً كالّذي أنزل على قوم نوح، ولا جعله قليلاً لا ينبت به النّبات والزّرع من قلّته[6]

فأنشرنا به بلدةً ميتا: فأحيينا به بلدةً من بلادكم ميتا[7].

والّذي خلق الأزواج كلّها: والّذي خلق الأصناف كلّها[8] وفي ذلك تنبيه إلى أنّ كلّ ما في العالم زوج مِنْ حيث إنّ له ضدّاً أو مثلاً ما أو تركيباً ما، بل لا ينفكّ بوجه من تركيب.

إنّ الأشياء كلّها مركّبةٌ من جَوْهرٍ وعَرَض ومادّةٍ وصورة، فلا شيء يتعرّى من تركيبٍ يقتضي كونه مصنوعاً وأنّه لابُدّ له من صانعٍ تنبيهاً أنّه تعالى هو الفرد[9].

---

[1] تفسير الطّبري ٣٢/٢٥ .

[2] الجلالين.

[3] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "مهد" ٦١٦/٢.

[4] تفسير الطّبري ٣٢/٢٥.

[5] تفسير الطّبري ٣٢/٢٥.

[6] تفسير الطّبري ٣٢/٢٥.

[7] تفسير الطّبري ٣٢/٢٥.

[8] تفسير ابن كثير ٧/ ٢٠٧ ، والجلالين.

[9] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: "زوج" ١/ ٢٨٥.

الفلك: السُّفن[1] ويُستَعْمل ذلك للواحد والجمع[2].

لتستووا على ظهوره: كي تستووا على ظهور ما تركبون[3] وتستقرّوا[4] وتتمكّنوا[5].

إذا استويتم عليه: على ظهور هذا الجنس[6] سبحان الّذي سخّر لنا هذا: تنزيهاً لله تعالى. وسبحان أصله مصدر نحو غفران[7].

مقرنين: مطيقين[8].

وأنّا إلى ربّنا لمنقلبون: وإنّا إلى ربّنا من بعد مماتنا لصائرون إليه راجعون[9].

ولئن سألت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم كفّار مكّة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأوجدهما على غير مثال سابق فإنّ كفّار مكّة يقدّمون الجواب الصّحيح ويقولون إنّ الّذي خلق السّموات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ هو لله تعالى، العزيز في ملكه وسلطانه، يُعِزّ أولياءه، ويُذِلّ أعداءه، العليم الّذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء. وإنّما كان الجواب صحيحاً لأنّ الكافرين عموماً يقرون بتوحيد

---

[1] تفسير الطّبري ٣٢/٢٥.

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني: "فلك"٢٩٨/٢.

[3] تفسير الطّبري ٣٧/٢٥.

[4] الجلالين .

[5] تفسير ابن كثير ٢٠٧/٧.

[6] تفسير ابن كثير ٢٠٧/٧.

[7] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : "سبح" ١/ ٢٩٢ و٢٩٣.

[8] تفسير الطبري ٣٣/٢٥ وتفسير ابن كثير ٢٠٧/٧ والجلالين والكشاف٣ /٩١.

[9] تفسير الطّبري ٣٤/٢٠.

الرّبوبيّة، وهو توحيد الله تعالى بأفعاله. إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده دون سواه الخلاّق كلّ شيء، الفعّال لما يريد.

والعجيب في أمر المشركين أنّهم لا يرتّبون النّتيجة الصّحيحة على المقدّمة الصّحيحة، فلا يقرّون بتوحيد الألوهيّة، ولا يفردون الله تعالى بالعبادة، بل يشركون مع الله تعالى في العبادة الآلهة الزّائفة الّتي ما أنزل الله تعالى بعبادتها من سلطان. وهكذا يرتكب المشركون الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى، وهو أن يشركوا بالله تعالى في العبادة سواه.

ويتّخذ السّياق الاسمين من أسماء الله تعالى الحسنى وهما : ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ منطلقاً للحديث في بعض نعوت الحقّ جلّ وعلا كي يقر المشركون بتوحيد الله تعالى ويفردوه عزّ وجلّ بالعبادة، وبذلك يصحّ لهم توحيد الألوهيّة كما صحّ لهم توحيد الرّبوبيّة.

إنّ الله سبحانه وتعالى العزيز العليم هو الّذي جعل لكم يا أهل مكّة ويا أيّها النّاس الأرض ممهدةً كي تسيروا في أرجائها، مهيّئةً كي تعيشوا فوقها، وجعل لكم في الأرض سبلاً يسهل عليكم السّير فيها كي تتحوّلوا من مكانٍ إلى آخر، وتبلغوا الغاية الّتي تقصدونها، مهتدين بمعالم الطّريق وعلاماته الّتي لا تكاد تتشابه. وبالإضافة إلى الاهتداء بالعلامات في الأرض يكون الاهتداء بالنّجوم في السّماء.

والله سبحانه وتعالى العزيز العليم هو الّذي نزّل من السّماء ماءً بمقدار حاجة العباد والبلاد إليه. إنّه ليس بالكثير الّذي يتحوّل طُوفاناً يُهْلك الحرث والنّسل، وليس بالقليل الّذي يؤدّي إلى الجفاف وموت النّبات والهلاك.

وبهذا الماء النّازل من السّماء يحيي الله تعالى الأرض الميتة فتهتزّ بالنّبات، وتربو، وتنبت من كلّ زوجٍ بهيج. وكما يحيي الله تعالى الأرض الميتة بالماء فتنبت، يحيي الله تعالى الأموات يوم القيامة، فيخرجون من القبور كأنّهم جراد منتشر، للحساب فالجزاء، الثّواب والعقاب.

يجب عليكم يا كفّار مكّة، يا من تعترفون بأنّ الله تعالى هو الّذي يترل الغيث ويحيي الأرض بعد موتها، أن تتّخذوا من هذه القدرة للذّات العليّة دليلاً على البعث بعد الموت والقدرة المطلقة للعزيز العليم على إحياء الموتى، وعلى إخراجكم يا كفّار مكّة من قبوركم أحياء مع سائر الخلق.

والله سبحانه وتعالى العزيز العليم هو الّذي خلق الأزواج كلّها من النّاس والحيوان والنّبات والجماد. لقد انتهى العلم إلى أن الزّوجيّة أو الثّنائيّة من الذّكر والأنثى هي القانون المطّرد في جميع المخلوقات ابتداءً من الذّرّة وانتهاءً بأضخم المخلوقات، ولا يبقى واحد سوى الله تعالى الّذي أحسن كلّ شيءٍ خَلَقه وقدّره تقديرا.

والله سبحانه وتعالى جعل لنا من السّفن في البحر والأنعام في البرّ ما نركبه ونحمل عليه أثقالنا إلى بلدٍ لم نكن بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس. لقد سخّر الله تعالى لنا السّفن في البحر وذلّل لنا الإبل والخيل والبغال الحمير في البرّ لنستوي ونستقرّ على ظهور ما نركب في كلٍّ من والبحر البرّ، ثم نذكر نعمة ربّنا عزّ وجلّ إذا استوينا على ظهر ما نركب في كلٍّ من والبحر والبرّ ونشكر لله تعالى آلاءه العظيمة علينا، ونهتف من أعماق قلوبنا بتتريه الله تعالى عن كلّ ما ألحقه الظّالمون بالذّات العليّة ممّا لا يليق بجلالها وكمالها وجمالها.

إنّا نقول من أعماق أفئدتنا ونفوسنا: تتريهاً لله تعالى المتفرّد بكمال الجلال والجمال الّذي سخّر لنا هذا الّذي نركب، وما كنّا له مطيقين، ولا كنّا على تسخيره وتذليله

قادرين. وإنّا جميعاً إلى ربّنا بعد موتنا لراجعون، ويوم القيامة بين يديه جلّ وعلا واقفون للحساب والجزاء، الثّواب والعقاب.

وممّا يلحظ على الآيات الكريمات أنّها تبيّن بطريقٍ مباشرٍ وغير مباشر معنى الزّوجيّة أو الثّنائيّة في حقّ المخلوقات تأكيداً لوحدانيّة الخالق جلّ وعلا. إنّ الكافرين يُسْألون عمّن خلق السّموات والأرض، وهم يثبتون صفتين للذات العليّة، وهما صفة العزّة والعلم. والله سبحانه وتعالى.

جعل لنا الأرض فراشاً لنعيش عليها، وجعل لنا فيها سبلاً لنهتدي إلى غاياتنا. والماء يترل من السّماء ليحيي الأرض الميتة. والماء ذاته وليد التّفاعلات السّماوية والأرضية بإذن الله تعالى. والأرض الميتة تحيا بالماء بإذن الله تعالى، والخلائق تحيا يوم القيامة بإذن الله تعالى. والله سبحانه وتعالى خلق الأزواج كلّها وكلّ ذكرٍ وأنثى. والله سبحانه وتعالى جعل السّفن لنركبها في البحر، وجعل الأنعام لنركبها في البرّ، من أجل نستوي على ظهوره ثم نذّكر نعمة ربّنا عزّ وجلّ نسبحّ الله تعالى الّذي سخّر لنا كلّ هذا، والّذي ما كنّا مطيقين ولا قادرين على أن نركب شيئاً في البحر أو البرّ لولا فضله عزّ وجلّ علينا.

ويختم الحديث بتعميق معنى البعث والعودة إلى الله تعالى يوم القيامة من أجل حمل الكافرين على الإيمان بالبعث والعمل لما بعد الموت.

وإذا كان الكافرون يقرون بتوحيد الرّبوبيّة وهو توحيد الله تعالى بأفعاله ونصّوا على نعتين له جلّ وعلا وعلى اسمين من أسمائه الحُسْنى عزّ وجلّ وهما: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإنّ الآيات بعد ذلك تعمّق معنى هذين الاسمين من أسمائه عزّ وجلّ الحسنى، فالله سبحانه وتعالى هو الّذي سخّر لنا كلّ ما في السّموات وما في الأرض، وهو الرّزّاق،

وهو الّذي خلق الزّوجين الذّكر والأنثى، وهو الّذي سخّر لنا الفلك لنركبها في البحر والأنعام لنركبها في البرّ، وهكذا. وكلّ هذه النّعوت للحقّ جلّ وعلا الّتي ينطق بها السّياق والّتي نفهمها منه من أجل حمل المشركين الّذين يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة.

على الإقرار بتوحيد الألوهية كي يفردوا الله تعالى بالعبادة وكي يعملوا للآخرة وكي يتلوا مع الموحّدين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وإنّ الثّنائيّة الواضحة في المعاني، وبخاصّةٍ النّصّ على خلق الله تعالى الأزواج كلّها، تخدم قضيّة التّوحيد، الّتي كان النّصّ عليها صراحةً أو ضمنا. لقد كان النّصّ على قضيّة التّوحيد صراحة في مثل القول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وكان الإيماء إلى هذه القضيّة ضمناً حينما يكون النّصّ على قانون الزّوجيّة بشأن المخلوقات منبهاً على الوحدانية بشأن الخالق جلّ وعلا.

وإنّ الزّوجيّة أو ثنائيّة المعاني نستطيع أن نتبيّنها كذلك في النّوعين من السّير أو السّفر. في السّفر بحراً وبرّاً على الفلك والأنعام، وفي السّفر إلى الله تعالى والرّجوع إليه عزّ وجلّ.

(٢)

"يصرّ كفّار مكّة تقليد آبائهم المشركين، ولا يتّعظون بانتقام الله تعالى من المكذّبين السّابقين"

الآيات(١٥-٢٥)

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

وجعلوا له من عباده جزءاً: وجعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيباً، وذلك قولهم للملائكة هم بنات الله[1].

أم اتّخذ ممّا يخلق بنات: أم بمعنى بل، أو بمعنى الهمزة، أو بمعنى بل والهمزة هي للإنكار[2] والقول مقدّر: أي: أم تقولون اتّخذ[3].

وأصفاكم بالبنين: وأخلصكم بالبنين فجعلهم لكم[4].

وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرّحمن مثلا: بما مَثّل لله فشبهّه شبهاً، وذلك ما وصفه به من أنّ له بنات[5] لأنّ الولد يشبه الوالد[6].

وهو كظيم: ممتلئ غمّا[7] وهو حزين[8].

---

[1] تفسير الطّبري ٣٤/٢٥ .

[2] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢٣/١١ ، والجلالين .

[3] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢٣/١١ ، والجلالين .

[4] تفسير الطّبري ٣٤/٢٥ .

[5] تفسير الطّبري ٣٤/٢٥ .

[6] الجلالين .

[7] الجلالين .

[8] تفسير الطّبري ٣٤/٢٥.

أو من ينشّأ في الحلية: أَو يَجْعلون لله من ينشّأ في الزّينة[1] وجعل المشركون لله تعالى من عباده الّذين خلقهم نصيباً فزعموا أنّ الملائكة بنات الله تعالى وعبدوهم. إنّ جنس الإنسان لكفور لنعم الله تعالى، بيّن الكفران لتلك النّعم. وأَوْضَحُ ما يكون الكفران في الإشراك مع الله تعالى غيره في العبادة، كالملائكة الّتي زعم العرب أنّهم بنات الله تعالى، وكالأصنام الّتي صوّروها على هيئة الملائكة، حسب تصوّرهم السّقيم، وفكرهم العقيم.

أم تقولون أيّها المشركون اتّخذ الله تعالى ممّا يخلق بناتٍ بزعمكم أنّ الملائكة بنات الله تعالى، وخصّكم بالبنين! كيف ترضون لله تعالى البنات وأنتم لا ترضونهنّ لأنفسكم. أين ذهبت عقولكم وغابت أحلامكم!

وإذا بُشّر واحد من هؤلاء المشركين بالبنت الّتي جعلها الله تعالى شبهاً، بزعمه أنّ الملائكة بنات الله تعالى، والمعروف أنّ الولد يشبه أباه، إذا بُشّر واحد بالبنت المولودة له ظلّ وجهه مسودّاً بسبب النّبأ السّيئ الّذي بلغه، وهو ممتلئ همّا وغمّا، كاظم حزنه وحسرته أسىً وكمدا.

أَو يجعلون لله تعالى من ينشّأ في الزّينة حظاً ونصيباً، وهو البنت، ومن هو في الخصام غير مبين، وفي مجال الإدلاء بالحجّة غير مصفح، وذلك بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعالى! يحدث ذلك في الوقت الّذي يحبّون فيه الذّكور ويكرهون الإناث! وربّما وأَدَ قساة القلوب منهم والأكباد بناتهم بغير ذنب.

---

[1] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢٤/١١ ، والجلالين .

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الّذين هم عباد الرّحمن: الّذين هم خلقه وعباده[1].

ويُسْألون: عن ذلك يوم القيامة[2].

وقالوا لو شاء الرّحمن ما عبدناهم: وقال هؤلاء المشركون أوثاننا الّتي نعبدها من دونه[3] ولو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، الّتي هي على صور الملائكة[4] ولحال بيننا وبين عبادة الملائكة، فعبادتنا إيّاهم بمشيئة، فهو راضٍ بها[5].

إن هم إلاّ يخرصون: ما هم إلاّ يكذبون ويتقوّلون[6].

من قَبْله: من قبل هذا القرآن الّذي أنزلناه إليك يا محمّد[7].

على أمّة : على دينٍ ومِلّة[8].

---

[1] تفسير الطّبري ٣٦/٢٥ .

[2] تفسير ابن كثير ٢١٠/٧.

[3] تفسير الطّبري ٣٦/٢٥ .

[4] تفسير ابن كثير ٢١٠/٧ .

[5] انظر تفسير الطّبري ٣٦/٢٥ وتفسير ابن كثير ٣١٠/٧ ، والجلالين .

[6] تفسير بن كثير ٢١٠/٧ ، ومفردات الرّاغب الأصفهاني : "خرص" ١٩٣/١، والجلالين .

[7] تفسير الطّبري ٣٦/٢٥ .

[8] تفسير الطّبري ٣٦/٢٥ .

وجعل مشركو قريش الملائكة الّذين هم خلق من خلق الله تعالى وعباده إناثاً، أكانوا حاضرين وشاهدين! ستكتب الملائكة شهادتهم وسوف يُسْألون عنها يوم القيامة ويعذّبون على كذبهم وإدلائهم بشهادة الزّور.

وقال مشركو قريش لو شاء الله تعالى ما عبدنا الملائكة ولا الأصنام الّتي صنعناها بأيدينا وفق تصوّرنا للملائكة. ولو شاء الله تعالى ألاّ نعبد الملائكة والأصنام الّتي على صورتها لمَنعَنا. وإنّ عدم منع الله تعالى لنا دليل على رضاه عن تلك العبادة، وكَذَبوا. ليس لهم بذلك شيء من علم، وما هم إلاّ يكذبون في ادّعائهم.

أم أنّا آتيناهم كتاباً من قبل القرآن الكريم ووحياً سابقاً عليه، فيه إذن لهم بأن يشركوا مع الله تعالى غيره في العبادة، فهم بذلك الكتاب مستمسكون، وبذلك الوحي محتجّون!

الحقيقة أنّ كلّ الّذي عندهم أن قالوا: إنّا وجدنا آباءنا وأجدادنا على ملّة بعينها قوامها الإشراك مع الله تعالى غيره في العبادة، وإنّا على آثار الآباء والأجداد مهتدون، وبآرائهم مستنيرون!

وهكذا أثبت مشركو قريش أنّهم عطّلوا عقولهم، وأنّهم ببّغاوات، وأنّ عقولهم في آذانهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾

وكذلك: وهكذا[1].

قال أو لو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم: قال أتفعلون ذلك ولو جئتكم[2] أتتّبعون آباءكم[3].

وهكذا أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ ينذر المشركين بين يدي عذابٍ شديد إلاّ قال مترفوها ومتنعّموها، سادتها وأشرفها، إنّا وجدنا آباءنا على دينٍ وملّة، وإنّا على آثارهم مقتدون، ولخطواتهم مقتفون، ولسنا مستعدّين لمجرد التّفكير في فساد ديننا، فضلاً عن تغيير ملّتنا.

قال كلّ نذيرٍ لقومه، كما قال محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - لقومه لاحقاً: أتتّبعون آباءكم ولو جئتكم بدينٍ أهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم وبعقيدة التّوحيد؟ قالوا إنّا بما أُرْسِلتُمْ به من دعوةٍ إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان وعبادة الله تعالى الواحد الدّيّان كافرون، ولها رافضون. فانتقمنا من المشركين السّابقين وأخذناهم بذنوبهم .

فمنهم من أرسل الله تعالى عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصّاعقة، ومنهم من خسف الله تعالى به الأرض، ومنهم من أغرقه الله تعالى في البحر أو بالطّوفان. وهكذا.

---

[1] تفسير الطّبري ٣٧/٢٥ .

[2] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢٨/١١ .

[3] الكشّاف ٤٩/٣ ، والبحر المحيط ١١/٨ ، وانظر الجلالين .

فانظر يا محمّد بعين قلبك وبصيرتك كيف كان عاقبة المكذّبين السّابقين من أمثال قومك. إنّك يا محمّد لست بِدْعاً من الرّسل حينما يكذّبك قومك. وكما نَصَرْتُ رسلي السّابقين سوف أنصرك. وكما كان عاقبة المكذّبين السّابقين الهلاك سيكون المصير ذاته من نصيب قومك، إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً.

(٣)

"أرسل الله تعالى محمّداً صلّى الله تعالى وسلّم بالرّسالة الأخيرة والكاملة من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام"

الآيات(٢٦-٣٢)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وإذ قال إبراهيم: واذكر إذ قال إبراهيم[1].

إنّني براء: إنّني بريء[2] فوضع البراء وهو مصدر موضع النّعت[3].

إلاّ الّذي فطرني: إلاّ من الّذي فطرني، يعني الّذي خلقني[4] فإنّه سيهدين: فإنّه سيقوّمني للدّين الحقّ، ويوفّقني لا تّباع سبيل الرّشد[5].

وجعلها كلمةً باقيةً في عقبة: شهادة أن لا إله إلاّ الله والتّوحيد، لم يزل في ذرّيّته من يقولها من بعده[6] وفي ولده[7] وفي خَلفَه[8].

لعلّهم يرجعون: ليرجعوا إلى طاعة ربّهم، ويتوبوا إلى عبادته، ويتوبوا من كفرهم وذنوبهم[9].

واذكر يا محمّد إذ قال إبراهيم أبو الأنبياء - عليهم السّلام - لأبيه وقومه المشركين إنّني بريءٌ ممّا تعبدون إلاّ الله تعالى الّذي فطرني وأوجدني من العدم فإنّه سيهديني سواء

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢٩/١١ والجلالين.
[2] تفسير الطّبري ٣٨/٢٥ .
[3] تفسير الطّبري ٣٨/٢٥ .
[4] تفسير الطّبري ٣٨/٢٥ .
[5] تفسير الطّبري ٣٨/٢٥ .
[6] تفسير الطّبري ٣٩/٢٥ و ٣٨ .
[7] تفسير الطّبري ٣٩/٢٥ .
[8] تفسير الطّبري ٣٩/٢٥ .
[9] تفسير الطّبري ٣٩/٢٥ .

السّبيل ويقودني إلى سبيل الرّشاد. وقد آتى الله سبحانه وتعالى إبراهيم - عليه السّلام - رشده وهداه سواء السّبيل. وقد جعل إبراهيم - عليه السّلام - كلمة التّوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله في ذرّيته بإذن الله تعالى، فلا يزال في عقبه - عليه الصّلاة والسّلام - من يوحّد الله تعالى ويعبده وحده دون سواه ويقول: لا إله إلا الله.

وقد بعث الله تعالى محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - بالرّسالة الأخيرة والكاملة من حنيفيّة إبراهيم - عليه السّلام - أبي الأنبياء، عليهم جميعاً صلّوات الله تعالى وسلامه إلى يوم الدّين.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

بل: للإضراب الانتقالي[1].

متّعت هؤلاء وآباءهم: متّعت يا محمّد هؤلاء المشركين من قومك وآباءهم من قبلهم بالحياة فلم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم[2].

حتّى جاءهم الحقّ: القرآن الكريم[3].

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/٣٣٠ .

[2] تفسير الطّبري ٢٥/٣٩.

[3] تفسير الطّبري ٢٥/٣٩.

وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش إن كان هذا القرآن حقاً من عند الله فهلا نُزّل على رجلٍ عظيم[1] من أهل القريتين[2] مكّة أو الطّائف[3] يريدون الوليد بن المغيرة المخزومي الّذي كان يُسَمَّى رَيْحانة قريش وعروة بن مسعود الثّقفي[4].

ليتّخد بعضهم بعضاً سخريّا: ليستسخر هذا في خدمته إيّاه، وفي عود هذا على هذا بما في يديه من فضل[5] والتّسخير سياقه إلى الغرض المختصّ قهرا. والمسخَّر هو المقيّض للفعل. والسُّخريّ هو الّذي يُقْهَر فيتسخّر بإرادته[6].

روى التّرمذيّ[7] عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة. واصطفى من بني كنانة قريشاً. واصطفى من قريش بني هاشم. واصطفاني من بني هاشم.

---

[1] انظر تفسير الطّبري ٣٩/٢٥ .

[2] الجلالين .

[3] تفسير الطّبري ٣٩/٢٥ .

[4] انظر تفسير الطّبري ٤٠/٢٥ ، وتفسير ابن كثير ٢١٢/٧ .

[5] تفسير الطّبري ٤١/٢٥ .

سنن التّرمذي ٥٤٤/٥ حديث رقم ٥ . ٣٦ ، وانظر حديث رقم ٣٦٠٦ ، وانظر صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ١٧٨٢/٤ حديث رقم ٢٢٧٦ والفصول في سيرة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – لابن كثير ٨٩ والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٨٢/١ .

[6] مفردات الرّاغب الأصفهاني :" سخر" ٣٠٠/١ .

[7] سنن التّرمذي ٥٤٤/٥ ، حديث رقم ٥ . ٣٦ ، وانظر حديث رقم ٣٦٠٦ وانظر صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ١٧٨٢/٤ حديث رقم ٢٢٧٦ والفصول في سيرة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – لابن كثير ٨٩. والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٨٢/١ .

قال أبو عيسى : هذا حديث حَسَن صحيح.

جعل إبراهيم – عليه السّلام – كلمة التّوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله في عقبة، فلم يزل في ذرّيّته من يقولها من بعده. ولإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ولدان، إسماعيل وإسحاق عليهما الصّلاة والسّلام. وكلّ الأنبياء بعد إبراهيم – عليه السّلام – من ذرّيّته ولهذا يلّقب بأبي الأنبياء. ومحمّد بن عبد الله – صلّى الله عليه وسلّم – هو النّبيّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام. وكلّ الأنبياء الآخرين من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم– عليهما السّلام – عن طريق يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام.

وليعقوب – عليه السّلام –اسم آخر هو إسرائيل. وكلّ أنبياء بني إسرائيل من ذرّيّة يعقوب عليه السّلام. وكبير أنبياء بني إسرائيل موسى عليه السّلام. وآخر أنبياء بني إسرائيل عيسى عليه السّلام.

وجاء في الحديث الّذي رواه الإمام مسلم[1]: " أنّ رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – قال ذات يوم في خطبته... وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم[2] عربهم وعجمهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب[3] " وكأنّ الموحّدين من ذرّيّه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حتّى بعثة المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم – هم قلّةٌ من أهل الكتاب، من اليهود والنّصارى، الّذين ظلّوا مستمسكين بهَدْي كلٍّ من موسى وعيسى – عليهما الصّلاة والسلاّم –.

وجـــاء في صحيح البخاريّ[4] في الحديث الّذي يتحدّث عن بدء الـــوحي :" عن

---

[1] صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ٤/٢١٩٧، حديث ٢٨٦٥ ، ٢٥٢ .

[2] المقت: أشدّ البغض .

[3] المراد بهم الباقون على التّمسّك بدينهم الحقّ من غير تبديل .

[4] فتح الباري ١/٢٢ حديث رقم ٣، وانظر صحيح مسلم بشرح النّووي ٢/١٩٧، وتحقيق عبد الباقي ١/ ١٣٩ حديث رقم (٢٥٢) .

عائشة أمّ المؤمنين أنّها قالت: أوّل ما بدئ به رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – من الوحي الرّؤيا الصّالحة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فَلَق الصّبح. ثمّ حُبّب إليه الخلاء. وكان يخلوا بغار حراء فيتحنّث فيه – وهو التّعبّد – اللّيالي ذوات العَدَد" قوله: فيتّحنّث، هي بمعنى يتحنّف، أي يتبع الحنيفيّة وهي دين إبراهيم. والفاء تبدل ثاءً في كثير من كلامهم. وقد وقع رواية ابن هاشم في السّيرة: يتحنّف، بالفاء[1] قال ابن هشام: تقول العرب: التّحنّث والتّحنّف، يريدون الحنفيّة فيبدلون الفاء من الثّاء كما قالوا: جَدَث وجدف، يريدون القبر[2].

وليس ببعيد عن أذهاننا قصّة الحنفاء من قريش الّذين أدركوا أنّ قومهم اخطأوا دين أبيهم إبراهيم – عليه السّلام – فعبدوا الأصنام، فتفرّق الأربعة في البلدان يلتمسون الحنيفيّة دين إبراهيم – عليه السّلام– [3] ومِنْ هؤلاء زيد بن عمرو بن نُفيل. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مُسْنِداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري. ثمّ يقول: اللّهمّ لو أنّي أعلم أيّ الوجوه أحبّ إليك عبدتك به، ولكنّي لا أعلمه، ثمّ يسجد على راحته [4].

بل الحقيقة أنّ الحقّ جلّ وعلا متّع كفّار مكّة وآباءهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة رغم شركهم، حتّى جاءهم القرآن الكريم والرّسول العظيم محمّد – صلّى الله عليه وسلّم– الّذي بين للنّاس معنى الكتاب العزيز الّذي نُزّل إليهم لعّلهم يحسنون التّفكّر والتّدبّر ويبادرون إلى اتّباع خير الأنام – صلى الله عليه وسلّم –.

---

[1] فتح الباري ١/٢٣ .

[2] السّيرة النبوية ١/٢٣٥ .

[3] انظر السّيرة النّبويّة ١/٢٢٢ .

[4] السّيرة النّبويّة ١/٢٢٥ .

ولّما جاء كفّار مكّة القرآن الكريم قالوا هذا سحر وإنّا بهذا السّحر كافرون، وله جاحدون.

ولّما جاء كفّار مكّة محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - الّذي أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم وأرسله رحمةً للعالمين قال كفّار مكّة: إن كان نزول القرآن الكريم واجباً، هلاّ نُزّل على رجلٍ عظيمٍ من أهل القريتين، مكّة المكّرمة والطّائف، وليس على محمّد، الرّجل الفقير!

أهم يقسمون يا محمّد ويا أيّها الإنسان رحمة ربّك جلّ وعلا. إنّ الله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته. وإن الله سبحانه وتعالى قسم بين البشر وفيهم أهل مكة معيشتهم وقدّر أرزاقهم في هذه الحياة الدّنيا، وفضّل بعضهم على بعضٍ في الرّزق وفي الجاه، ليتّخذ بعضهم بعضاً أُجَراء لديهم وعاملين لدى الآخرين بمحض إرادتهم، بل ربّما بسعيٍ وحرصٍ شديدين منهم. وقديماً قال الشّاعر: " النّاس للنّاس من بدوٍ وحاضرة: بعض لبعضٍ وإن لم يشعروا خدم " ورحمة ربّك أيّها الرّسول الكريم وأيّها المؤمن، في الأولى بالحياة الطّيّبة، وفي الأخرى بدخول جنّات النّعيم، خير ممّا يجمع المشركون والمعرضون عن الله تعالى ويَكْدِسون من حطام الدّنيا، وما يحرصون عليه من متاعها الزّائل، ونعيمها العابر.

(٤)

"هوان الدّنيا على الله تعالى، وتسليطه جلّ وعلا شياطين الجنّ على المعرضين عن القرآن الكريم، وما على الرّسول إلاّ البلاغ المبين"

الآيات(٣٣-٤٥)

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

أمّةً واحدة: جماعةً واحدةً على الكفر[1].

سُقُفا: السُقُف بضمّتين جمع السَّقف بفتح السّين وسكون القاف[2] وهما قراءتان[3] يعني أعالي بيوتهم وهي السُّطوح[4].

ومعارج: أي سلالم ودرجاً[5] ومراقي[6] والمفرد مِعْرج كما يجمع المِفْتح مفاتح. وثمّة لغة أخرى معراج ومفتاح. ولو جُمع معاريج كان صواباً كما يُجْمَع المفتاح مفاتيح[7].

عليها يظهرون: عليها يصعدون[8].

عليها يتّكئون: المتّكِئ في العربيّة كلّ من استوى قاعداً.

على وطاءٍ متمكّنا. والعامّة لا تعرف المتّكئَ إلاّ من مال في قعوده معتمداً على أحد شقّيه[9].

---

[1] تفسير الطّبري ٤١/٢٥ .

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"سقف" ٣١٠/١ .

[3] انظر تفسير الطّبري ٤٢/٢٥ .

[4] تفسير الطّبري ٤٢/٢٥ .

[5] تفسير ابن كثير ٢١٣/٧ .

[6] تفسير الطّبري ٤٢/٢٥ ، والمراقي جمع المرقاة بفتح الميم وكسرها وهي وسيلة الرّقي .

[7] انظر تفسير الطّبري ٤٣/٢٥ ، وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٣٤/١١ .

[8] تفسير الطّبري ٤٢/٢٥ .

[9] لسان العرب: "وكأ" .

وزخرفا: أي وذهباً[1] مفعول به لفعلٍ محذوف تقديره وجعلنا زخرفا[2] ويجوز أن يكون منصوباً على نزع الخافض معطوفاً على: {من فضة} أي من فضة ومن زخرف أي من ذهب[3].

وإن كلّ لّما متاع الحياة الدّنيا: وإن مخفّفة من الثّقيلة[4] ولّما للحصر بمعنى إلاّ[5] ويجوز أن تكون إن حرف نفي[6].

لولا أن يكون النّاس جميعاً أمّةً واحدةً كافرةً بالله تعالى ولولا أن يُفْتن المؤمنون عن دينهم لجعلنا لبيوت الّذين يكفرون بالرّحمن، بسبب هوان الدّنيا على الله تعالى، سُقُفاً من فضّة، وسلالم من فضّة عليها يصعدون، ولجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة، وسرراً من فضّةٍ عليها يتّكئون متمكنين في قعودهم ويميل الواحد منهم على أحد شقيه، ويعتمد على أحد جنبيه. بل لجعلنا كل ذلك من الّذهب الخالص. وما كلّ ذلك إلاّ لهوان الدّنيا على الله تعالى، وما كلّ ذلك إلاّ متاع الّدنيا الزّائل، ونعيمها العابر. والآخرة عند ربّك أيّها الّنبيّ الكريم وأيّها المؤمن للمتّقين الّذين ارتّقوا معارج التّقوى حتّى بلغوا مرتبة الإحسان. إنّ الواحد من المتّقين يراقبه ضميره الحيّ، لأنّه يعلم أنّه إن لم يكن يرى الله تعالى فإنّ الله تعالى يراه.

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – : لو كانت الدّنيا

---

[1] تفسير الطّبري ٤٣/٢٥، وتفسير ابن كثير ٢١٣/٧ .

[2] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٣٤/١١، وتفسير الطّبري ٣٤/٢٥ .

[3] انظر الجدول في الإعراب القرآن وصرفه ٣٣٤/١١ هامش .

[4] الجلالين .

[5] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٣٤/١١، والجلالين .

[6] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٣٤/١١ .

تَعْدِل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء[1].

جاء عن موسى - عليه السّلام - وقومه المؤمنين قول الحقّ جلّ وعلا في سورة يونس[2]: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

إنّ نصيب المتّقين الحياة الطيبة في الأولى والآخرة.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ومن يعش عن ذكر الرّحمن: أي يتعامى ويتغافل ويعرض[3] عَشِيَ عن كذا نحو عَمِي عنه[4] والعشا ظلمةٌ تعترض في العين يقال رجل أعشي وامرأة عَشْواء[5] والمراد

---

[1] سنن التّرمذي ٤/٤٨٥، حديث رقم ٢٣٢٠ .

[2] الآيات ٨٣-٨٦ .

[3] تفسير ابن كثير ٧/٢١٤ وانظر لسان العرب:"عشا" .

[4] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"عشا" ٢/٤٣٧، وانظر تفسير الطّبري ٢٥/٤٤ .

[5] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"عشا" ٢/٤٣٦ .

هنا عشا البصيرة[1] وذكر الرّحمن القرآن[2] ومعنى الكلام: ومن لا ينظر في حجج الله بالإعراض منه عنه إلاّ نظراً ضعيفاً كنظر من قد عَشِي بصره نقيّض له شيطاناً[3].

نقيّض له شيطانا: نهيّئ ونسبّب له مقارناً وصاحباً من حيث لا يحتسب[4] والقَيْض: قشرة البيضة العليا اليابسة[5] وهكذا يستولي عليه الشّيطان استيلاء القيض على البيض[6].

ويحسبون أنّهم مهتدون: ويظنّ المشركون بالله بتحسين الشّياطين لهم ما هم عليه من الضّلالة أنّهم على الحقّ والصّواب[7].

بُعْدَ المشرقين: أي بُعْد ما بين المشرق والمغرب، فغلب اسم أحدهما على الآخر[8].

ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون: لن يخفّف عنكم اليوم من عذاب الله اشتراككم فيه لأنّ لكلّ واحدٍ منكم نصيبه منه[9] والمصدر المؤوّل في محلّ رفع فاعل ينفعكم أي لن ينفعكم اشتراككم في العذاب[10].

---

(1) تفسير ابن كثير ٢١٤/٧ .

(2) الجلالين .

(3) تفسير الطّبري ٤٤/٢٥ .

(4) انظر لسان العرب:"قيض".

(5) لسان العرب:"قيض" .

(6) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"قيض" ٥٣٦/٢ .

(7) تفسير الطّبري ٤٤/٢٥ .

(8) تفسير الطّبري ٤٤/٢٥ .

(9) تفسير الطّبري ٤٥/٢٥ .

(10) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٣٦/١١، وتفسير الطّبري ٤٥/٢٥.

ومن يُعْرِض عن ذكر الرّحمن الرّحيم، وينصرف بقلبه عن القرآن الكريم، ومن نَعْم بصيرته عن هَدْي الّذكر الحكيم، نهيّئ له شيطاناً فهو له مصاحب، ونسلّط عليه قريناً فهو له رائد، يقوده الشّيطان إلى سبل الضّلال، ويلقي به مهاوى الرّدى. وهذا الشّيطان اللّعين المقارن له يعلوه ويستحوذ عليه كما يعلو القيض البيض، وكما تستحوذ قشرة البيضة العليا اليابسة على البيضة.

وإن الشّياطين ليصدّون أولياءهم من الإنس عن سوء السّبيل، ويظنّ المشركون أنّهم مهتدون ويسيرون في الصّراط المستقيم لذا هم فرحون بما لديهم، سعداء بضلالهم!

حتّى إذا جاءنا الضّالّ عن سوء السّبيل قال لقرينه الشيطان الرّجيم وهما في الطّريق إلى الجحيم يا ليت بيني وبينك بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب فأنت بئس الصّاحب والمقارن. وليس الوقت وقت ندم على ما معنى، فقد فات الأوان.

ولن ينفعكم يوم القيامة إذا أشركتم أيّها الظّالمون أنّكم أنتم وقرناءكم في العذاب مشتركون. إنّ لكلٍّ نصيبه من العذاب، وحظّه الموفور من النّار، ويجب أن ينال كلٌّ حظّه الخاصّ به من العذاب، دون أن يشترك غيره معه فيما يخصّه من العقاب، كما أنّه لا يخفّف عن قرينه ما يخصّه وحده من العذاب، ونصيبه الموفور من العقاب.

وإنّ القول: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ يذكّرنا بالمعنى ذاته في الآية الكريمة الخامسة والعشرين من سورة فصّلت في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ وليس لهاتين الجملتين: {نُقَيِّضْ لَهُۥ} {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ} ثالثة في القرآن الكريم. ولا يخفى أنّ هاتين الجملتين تأتيان في سورتين اثنتين من آل حم.

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وإنه لذكرٌ لك ولقومك: وإنّه لشرف لك[1] ولقومك لنزوله بلغتهم[2].

واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: واسأل مؤمني أهل الكتابين التّوراة والإنجيل[3].

وأنت يا محمّد، يا أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، يا من توشك أن تقتل نفسك بباعث الحزن لإعراض قومك عن دعوتك لهم إلى صراط العزيز الحميد، أتستطيع أن تُسْمِعَ سماع قبولٍ من ليس مستعدّاً لأن يصغي إليك، بل لأن يلتفت إليك، وكأنّه وُلِدَ أصم لا يسمع، أفأنت يا محمّد تستطيع أنت تهدى إلى سواء السّبيل أعمى البصيرة، وكأنّه الّذي وُلِدَ أعمى فاقد حاسّة البصر أصلاً. إنّ هذا الفريق غير المستعدّ لسماع دعوة الحقّ سماع قبول، ولإبصار نور الحقّ بعين البصيرة لفي ضلالٍ مبين، وابتعادٍ بيّن عن الصّراط المستقيم.

والمعروف أنّ مرض الأذن بعدم سماع الصّوت، ومرض العين بعد إبصار المرئيات في المحسوسات لا دخل للعبد في أيّ من المرضين. وإنّما يكون الشّخص مسؤولاً عن عدم

---

(1) تفسير الطّبري ٤٦/٢٥، وتفسير ابن كثير ٢١٦/٧، والجلالين .

(2) الجلالين .

(3) تفسير الطّبري ٤٦/٢٥ .

السّماع الواعي المفضي إلى الهداية بإذن الله تعالى، وعدم الاهتداء بنور البصيرة. إنّ المرض المعنويّ لكلّ من الأذن والعين يكون بسبب إعراض القلب عن سماع دعوة الحقّ وعن استقبال نور الهداية. والإنسان مسؤول في كلتا الحالتين.

فإمّا نذهبنّ بك إلى جوارنا أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فإنّا من المشركين منتقمون. وإمّا نبقينّك ونرينّك الّذي وعدناهم من العذاب فإنّا عليهم مقتدرون. وقد نصر الله تعالى حبيبه -صلّى الله عليه وسلّم- نصراً مؤزّرا. والمعروف أنّ محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - هو النبي الوحيد الّذي اقترنت دولته بدعوته.

فتمسّك أيّها الرّسول الكريم أشدّ التّمسّك بهذا الكتاب العزيز الّذي أوحيناه إليك، والّذي تبيّنه سنّتك المطّهرة - صلّى الله تعالى وسلّم - عليك. أنّك يا محمّد على صراطٍ مستقيم، وطريق قويم.

وإنّ هذا الكتاب العزيز لشرف عظيم لك يا محمّد ولقومك الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم، بلسان عربيّ مبين.

واسأل يا محمّد مؤمني أهل الكتابين السّابقين، التّوراة والإنجيل: أجعلنا من دون الرّحمن آلهةً يُعْبدون، أو أذِنّا لأحدٍ بأن يشرك معنا أحداً غيرنا في العبادة. والجواب بطبيعة الحال معروف. إنّ كلّ المرسلين والنّبيّين بُعثوا بدين التّوحيد.

والمعروف أنّ المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - لم يسأل أحداً من أهل الكتابين في هذه المسألة، كما أنّه لم يسأل بشأن المسألة الأخرى الّتي أومأ إليها قول الحقّ جلّ وعلا في سورة يونس [1]: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ

---

[1] الآية ٩٤ .

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ إنّ المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - قد جاءه الحقّ من ربّه عزّ وجلّ ولهذا هو لم يسأل بشأن أيٍّ من المسألتين.

(٥)

"أهلك اللّه تعالى فرعون وملأه وجعلهم عبرةً للأوّلين والآخِرين"

الآيات(٤٦-٥٦)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وما نريهم من آيةٍ إلاّ هي أكبر من أختها: وما نري فرعون وملأه آية، يعني حجّةً لنا عليه بحقيقة ما يدعوه إليه رسولنا موسى إلاّ الّتي نريه من ذلك أعظم في الحجّة عليهم وأوكد من الّتي مضت من قبلها من الآيات وأدلّ على صحّة ما يأمره به موسى من توحيد الله[1].

لعلّهم يرجعون: ليرجعوا عن كفرهم بالله إلى توحيده وطاعته التّوبة ممّا هم عليه مقيمون من معاصيهم[2].

وقالوا يا أيّها السّاحر: كان السّاحر عندهم معناه العالم. ولم يكن السّحر عندهم ذمّاً، والمعنى: يا أيّها العالم[3].

بما عهد عندك: بعهده الّذي عهد إليك أنّا إن آمنّا بك واتّبعناك كَشَفَ عنّا الرّجز[4].

إنّنا لمهتدون: إنّا لمتّبعوك فمصدّقوك فيما جئتنا به.

---

[1] انظر تفسير الطّبري ٤٨/٢٥ .

[2] تفسير الطّبري ٤٨/٢٥ .

[3] انظر تفسير الطّبري ٤٨/٢٥.

[4] تفسير الطّبري ٤٨/٢٥ .

وموحّدو الله فمبصر وسبيل الرّشاد[1].

ينكثون: ينكثون العهد الّذي عاهدونا، يغدرون ويصرون على ضلالهم ويتمادون في غيّهم[2].

ولقد أرسلنا موسى عليه السّلام، كبير أنبياء بني إسرائيل، بآياتنا البيّنات، وحججنا الواضحات، إلى فرعون مصر وملئه من الأمراء، والوزراء، والقوّاد، والخاصّة والنّبلاء، فقال لفرعون وملئه بصفتهم السّادة والقادة: إني رسول ربّ العالمين، أرسلني بدين التّوحيد.

فلمّا جاءهم موسى - عليه السّلام - بآياتنا البيّنات، كما جئت يا محمّد قومك بآياتنا البيّنات، إذا هم منها يضحكون، وبها يسخرون، كما فعل قومك معك يا محمّد من سخريةٍ واستهزاء.

وما نُري فرعون وملأه من الآيات الّتي آتيناها موسى - عليه السّلام - إلاّ كانت الآية اللاحقة أكبر من أختها السّابقة، وأبلغ في الدّلالة على أنّها آيات من عند الله تعالى العزيز الحكيم. وأخذناهم بالعذاب لعلّهم يرجعون إلى الله تعالى، ويفردونه بالعبادة، وينتهون عن الشّرك فلم يرجعوا. لقد أخذناهم بالسّنين العجاف، ونقصٍ من الثّمرات والأقوات، وبالطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم، آياتٍ مفصّلاتٍ، ومعجزاتٍ بينات. لقد كانوا كلّ مرّةٍ يسألون موسى عليه السّلام، وينادونه بالقول: يا أيّها العالم، ادْعُ لنا ربّك جلّ وعلا بعهده الّذي عهد إليك إن نحن تبنا إلى الله تعالى وآمنّا بك واتّبعناك أن يرفع عنّا العذاب، ويكشف عنّا الرّجز.

---

[1] تفسير الطّبري ٤٨/٢٥ .

[2] تفسير الطّبري ٤٨/٢٥.

لقد كان الحقّ جلّ وعلا يكشف عن القوم السّوء ويرفع العذاب استجابةً لدعاء موسى - عليه السّلام - الّذي كان يأمل أن يصدق فرعون وملؤه في وعدهم إيّاه أن يؤمنوا أن رُفِعَ عنهم العذاب. وكان القوم ينكثون عهدهم كلّ مرة وينقضون الميثاق، فأخذهم الحقّ جلّ وعلا أخذ عزيزٍ مقتدر، وأغرقهم في اليمّ.

وليس بخاف أنّ الحديث عن موسى - عليه السّلام - وملئه يهدف إلى تسلية المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - في هذه الفترة المكّيّة المبكّرة من تاريخ الدّعوة المحمّديّة، وليس بخافٍ أيضاً أوجه الشّبه الكثيرة بين ملابسات كلّ دعوتي موسى ومحمد.

وكان النّصّ على فرعون وملئه وهم السّادة والكبراء لأنّ الدّعوة تُوجَّه إليهم في العادة أوّلاً، ولأنّ العامّة تنقاد في العادة للخاصّة والقادة والسّادة.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

أم أنا خير: أم هذه متّصلة، لأنّ المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون. إلاّ أنّه وضع قوله: {أَنَا خَيْرٌ} موضع {تُبْصِرُونَ} لأنّهم إذا قالوا له أنت خير، فهم عنده بصراء. وهذا من إنزال السّبب منزله المسبَّب[1].

مهين: ضعيف حقير[2].

---

[1] الكشاف ١٠٠/٣، وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه٣٤٣/١١ ، وتفسير الطّبري ٤٩/٢٥، والجلالين .

[2] انظر تفسير الطّبري ٤٩/٢٥ ، وتفسير ابن كثير ٢١٨/٧ ، والجلالين.

ولا يكاد يبين: ولا يكاد يبين الكلام من عيّ لسانه[1].

فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب: فهلاّ ألقي على موسى إن كان صادقاً أنّه رسول ربّ العالمين أسورة من الذهب. وهو جمع سوار[2] والسّوار حلية من الذّهب مستديرة كالحلقة تُلْبس في المِعْصم أو الزّند[3] وكانت عادتهم فيمن يسوّرونه أن يلبسوه أسورة ذهب ويطوّقونه طوق ذهب[4].

مقترنين: قد اقترن بعضهم ببعض فتتابعوا يشهدون له بأنّه لله رسول إليهم[5].

ونادى فرعون طاغية مصر في قومه من القبط وصاح قائلاً: يا قومي، أليس لي مُلْك مصر، وأنا المتفرّد بالحكم، وكلمني فوق الجميع، وهذه الأنهار المتفرّعة من نهر النّيل العظيم تجري من تحت قصوري، وفي حدائقي الغنّاء ومتنزهاتي الفيحاء[6] أفلا تبصرون هذا الحقائق؟ ألا تبصرون أنّي أنا خير من هذا الّذي يصرفكم عن عبادتي وعن الشّرك وهو مهين ضعيف فقير، وهو إذا تكلّم لا يكاد يبين، ولا يكاد يفصح عمّا في نفسه. وكذب فرعون اللّعين إنّ موسى – عليه السّلام – الّذي يدعو إلى دين التّوحيد هو العزيز الكريم، وهو الّذي استجاب الله تعالى دعاءه فحلّ العقدة من لسانه – عليه السّلام – فأصبح يبين عمّا في نفسه، وأصبح السّامعون يفقهون قوله – عليه الصّلاة والسلام – بنصّ القرآن الكريم.

---

(1) تفسير الطّبري ٢٥/٤٩ .

(2) تفسير الطّبري ٢٥/٤٩ .

(3) المعجم الوسيط: "سور" .

(4) الجلالين .

(5) تفسير الطّبري ٢٥/٥٠.

(6) الفيحاء : الواسعة .

ويستمرّ فرعون الطّاغية في هذيانه وفي المقارنة المادّيّة الرّخيصة بين حاله وحال موسى – عليه السّلام – كليم الله تعالى. إن فرعون الطّاغية يقول إن كان موسى رسول الله تعالى حقّاً فهلاّ معه الدّليل والبرهان على ذلك هلاّ أُلقي عليه أساور من ذهب يضعها في مِعْصمه أو زنده جرياً على عادة من يُسَوَّد أن يلبس أسورة ذهب في معصمه، أو طوق ذهبٍ في جيده. وهلاّ جاء معه الملائكة وقد اقترن بعضهم ببعضٍ وتتابعوا يشهدون لموسى أنّه رسول ربّ العالمين إنّ شيئاً ممّا ذكرت لم يتحقق لموسى فهو إذن؛ حسب زعم فرعون الطّاغية وكذب ليس رسول رب العالمين.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾

فاستخفّ قومه فأطاعوه: أي استخفّ عقولهم فدعاهم إلى الضّلالة فاستجابوا له[1]

فلمّا آسفونا: فلمّا أغضبونا وأسخطونا[2].

فجعلناهم سلفاً: أي معتبراً متقدّماً[3] كمثل من عمل بعملهم[4] وقال الفرّاء: يقول جعلناهم سَلَفاً متقدّمين ليتّعظ بهم الآخرون[5].

ومثلاً للآخرين: وعبرةً وعظةً يتّعظ بهم من بعدهم من الأمم فينتهوا عن الكفر بالله[6].

---

[1] تفسير ابن كثير ٢١٩/٧ .

[2] تفسير الطّبري ٥٠/٢٥ .

[3] مفردات الرّاغب الأصفهاني:" سلف" ٣١٤/١ .

[4] تفسير ابن كثير ٢١٩/٧ .

[5] لسان العرب :" سلف" .

[6] تفسير الطّبري ٥١/٢٥ .

وجاء في لسان العرب[1] :" وقد يكون المثل بمعنى العِبْرة. ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ فمعنى السَّلَف أنّا جعلناهم متقدمين يتّعظ بهم الغابِرون[2] ومعنى قوله:{مثلاً} أي عبرةً يعتبر بها المتأخّرون"

فاستخفّ فرعون عقول ملئه وقومه فأطاعوه وعصوا موسى – عليه السّلام – وأصروا علي خطئهم. أنّهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن الصّراط المستقيم. فلمّا أغضبوا الحقّ جلّ وعلا وأسخطوه انتقم منهم وأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ فأغرقهم أجمعين في الماء المِلْح ببحر القُلزم، أي البحر الأحمر. فجعلهم الحقّ جلّ وعلا سلفا متقدّمين يتّعظ بهم الماضون السّابقون، وعبرةً وعظةً يتّعظ بهم الآخرون اللّاحقون.

وهكذا أهلك الله تعالى فرعون وملأه بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى فكانوا عبرةً وعظةً للكافرين المتقدّمين السّابقين كفّار مكّة زمنا، وعبرةً وعظةً للكافرين المتأخّرين اللّاحقين، كفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين المعاصرين لهم، والمتأخّرين عنهم زمنًا إلى يوم الدّين.

وليس بخافٍ هدف تسلية المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم – بذكر قصة موسى –عليه السّلام – مع فرعون وملئه وإغراق الله تعالى القوم الفاسقين أجمعين.

---

[1] " مثل" .

[2] الماضون السّابقون .